

تفسير البحر المحيط

@ 424 بعنق بعض . وذلك باتصال الضمائر لشيء واحد ، ويكون هذا التشبيه مطابقاً لأعمالهم من حيث أنهم اعتقدوها نافعة فلم تنفعهم وحصل لهم الهلاك بأثر ما حوسبوا . وأما في قول الزمخشري : فإنه وإن جعل الضمائر للطمآن لكنه جعل { الظَّـمَّـانُ } هو الكافر وهو تشبيه الشيء بنفسه كما قال . وشبه الماء بعد الجهد بالماء . وأما في قول غيره : ففيه تفكيك الكلام إذ غاير بين الضمائر وانقطع ترصيف الكلام يجعل بعضه مفلتاً من بعض . . { أَوْ كَطُّلُمَاتٍ } هذا التشبيه الثاني لأعمالهم فالأول فيما يؤول إليه أعمالهم في الآخرة ، وهذا الثاني فيما هم عليه في حال الدنيا . وبدأ بالتشبيه الأول لأنه أكد في الإخبار لما فيه من ذكر ما يؤول إليه أمرهم من العقاب الدائم والعذاب السرمدى . ثم أتبعه بهذا التمثيل الذي نبههم على ما هي أعمالهم عليه لعلمهم يرجعون إلى الإيمان ويفكرون في نور الله الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم) ، والظاهر أنه تشبيه لأعمالهم وضلالهم بالظلمات المتكاثفة . .

وقال أبو علي الفارسي : التقدير أو كذي ظلمات ، قال : ودل على هذا المضاف قوله { إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ } فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف ، فالتشبيه وقع عند أبي علي للكافر لا للأعمال وهو خلاف الظاهر ، ويتخيل في تقرير كلامه أن يكون التقدير أو هم كذي ظلمات فيكون التشبيه الأول لأعمالهم . والثاني لهم في حال ضلالهم . وقال أبو البقاء : في التقدير وجهان أحدهما : أو كأعمال ذي ظلمات ، فيقدر ذي ظلمات ليعود الضمير من قوله { إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ } إليه ، ويقدر أعمال ليصح تشبيه أعمال الكفار بأعمال صاحب الظلمة إذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمات . والثاني : لا حذف فيه ، والمعنى أنه شبه أعمال الكفار بالظلمة في حيلولتها بين القلب وبين ما يهتدى إليه ، فأما الضمير في قوله { إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ } فيعود إلى المذكور حذف اعتماداً على المعنى تقديره إذا أخرج من فيها يده . .

وقال الجرجاني : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار . والثانية في ذكر كفرهم ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضاً من أعمالهم ، وقد قال تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور . من الكفر إلى الإيمان ، فيكون التمثيل قد وقع لأعمالهم بكفر الكافر و { أَعْمَالَهُمْ } منها كفرهم ، فيكون قد شبه { أَعْمَالَهُمْ } بالظلمات ، والعطف بأو هنا لأنه قصد التنويع والتفصيل لا أن { أَوْ } للشك . وقال الكرمانى : { أَوْ } للتخيير على تقدير شبه أعمال الكفار بأيهما شئت . .

وقرأ سفيان بن حسين { أَوْ كَطُلُمَاتٍ } بفتح الواو جعلها واو عطف تقدّمت عليها
الهمزة التي لتقرير التشبيه الخالي عن محض الاستفهام . والظاهر أن الضمير في {
يَغْشَاهُ } عائد على { بَحْرٍ لَّجِيٍّ } أي يغشى ذلك البحر أي يغطي بعضه بعضاً ،
بمعنى أن تجيء موجة تتبعها أخرى فهو متلاطم لا يسكن ، وأخوف ما يكون إذا توالى أمواجه ،
وفوق هذا الموج { سَحَابٌ } وهو أعظم للخوف لإخفائه النجوم التي يهتدى بها ، وللريح
والمطر الناشئين مع السحاب . ومن قدر أو كذي ظلمات أعاد الضمير في { يَغْشَاهُ } على
ذي المحذوف ، أي يغشى صاحب الظلمات . .

وقرأ الجمهور { سَحَابٌ } بالتنوين { طُلُمَاتٍ } بالرفع على تقدير خبر لمبتدأ محذوف
، أي هذه أو تلك { طُلُمَاتٍ } وأجاز الحوفي أن تكون مبتدأ و { بَعَضُهُمَا فَوْقَ
بَعْضٍ } مبتدأ وخبره في موضع خبر { طُلُمَاتٍ } . والظاهر أنه لا يجوز لعدم المسوغ فيه
للابتداء بالنكرة إلاّ إن قدرت صفة محذوفة أي ظلمات كثيرة أو عظيمة { بَعَضُهُمَا فَوْقَ
بَعْضٍ } . وقرأ البيزي { سَحَابٌ طُلُمَاتٌ } بالإضافة . وقرأ قبل { سَحَابٌ }
بالتنوين { طُلُمَاتٍ } بالجر بدلاً من { طُلُمَاتٍ } و { بَعَضُهُمَا فَوْقَ بَعْضٍ }
مبتدأ وخبر في موضع الصفة لكظلمات . .

قال الحوفي : ويجوز على رفع { طُلُمَاتٍ } أن يكون { بَعَضُهُمَا } بدلاً منها ، وهو لا
يجوز من جهة المعنى لأن المراد وإي أعلم الأخبار بأنها ظلمات ، وأن بعض تلك الظلمات فوق
بعض أي ظلمات متراكمة وليس على الأخبار بأن بعض ظلمات فوق بعض من غير إخبار بأن تلك
الظلمات السابقة ظلمات متراكمة . وتقدم الكلام في كاد إذا دخل عليها حرف نفي مشبعاً في
البقرة في قوله { وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ } فأغنى عن إعادته ، والمعنى هنا انتفاء
مقاربة الرؤية ، ويلزم من ذلك انتفاء الرؤية ضرورة وقول من اعتقد زيادة يكاد أو أنه
يرأها بعد عسر ليس بصحيح ، والزيادة قول ابن الأنباري وأنه لم يرها إلاّ بعد الجهد قول
المبرد والفراء . .

وقال ابن عطية ما معناه : إذا كان الفعل بعد كان منفيّاً دل على ثبوته نحو كاد